أديبة الحلح

حياة ريفيات فلسطينيات في حيفا ١٩٣٠-١٩٤٨

عوني فارس*

حظيت القطاعات السكانية الحيفاوية الفقيرة، وتحديداً المهاجرين من الأرياف، إبان حقبة الانتداب البريطاني على فلسطين؛ حظيت باهتمام متواضع من قبل الأدبيات الفلسطينية التي عنيت بالتأريخ لمدينة حيفا، فلم يتم تناول دورهم بعمق، وقلَّما تمَّ التعرُّض لطبيعة حياتهم اليومية وتفاصيلها المختلفة، ومساهماتهم في تطور المدينة،[١] رغم أهمية ذلك في رسم صورة لطبيعة الحياة التي عاشها الفلسطينيون في مدنهم قبل النكبة.

وانحصر اهتمام الدراسات الفلسطينية الاجتماعية والتاريخية بالريفيين في حيفا في نطاقاتٍ بسيطة، فلم يؤتَ على ذكرهم إلا في حدودٍ ضيِّقة كالحديث عن تأثير هجرتهم إلى حيفا في ازدياد عدد سكانها، وسكنهم في أكواخ حول أحياء المدينة ممَّا أثَّر على الصحة العامة، ودفعَ الجهات الرسمية للتخلص منها، أو مشاركتهم في الثورة ضد الوجودَيْن: البريطاني والصهيوني في ثلاثينيات القرن الماضي وتأثيرات ذلك على المدينة ومستقبلها.[٢]

في المقابل شكَّلت الفئات المجتمعية الحيفاوية الأكثر تمدناً وتعليماً وغنى بؤرة تلك الدراسات.ونظراً لطبيعة الأوضاع السياسية التي مرت بها فلسطين في تلك الفترة واشتداد حدة الصراع بين سلطة الانتداب البريطاني والحركة الصهيونية من جهة، والشعب الفلسطيني وحركته الوطنية من جهةٍ أخرى، فقد أُعطيت مساحاتٌ واسعةٌ لدراسة الأحزاب السياسية والتنظيمات الجهادية والجمعيات الأهلية وسير الزعماء السياسيين كالشيخ القسام ورشيد الحاج إبراهيم وعبد الرحمن الحاج والنقابيين، كسامي طه وحنَّا عصفور، إضافة إلى كبار التجار، كعزيز الخياط، وأعلام الفكر والأدب، كعبد الكريم الكرمي ونجيب نصار، وتم تدوين أشكال النضال الوطني ومحاولات الحفاظ على المدينة في مواجهة المخططات الصهيونية الهادفة للاستيلاء عليها.

يهدف هذا البحث إلى المساهمة في سد بعضٍ من فراغات الرواية الفلسطينية حول الحياة المدنية في فلسطين قبل النكبة من خلال تسليط الضوء على جانبٍ من حياةِ الريفيات الفلسطينيات في مدينة حيفا إبان الانتداب البريطاني، ويتناول كفاحهنَّ للعيش في مدينة شهدت خلال عقدين قبل النكبة حراكاً سياسياً وثقافياً واجتماعياً تزامن مع اتساعٍ كبيرٍ في النشاط الاقتصادي. ويعتمد البحث بشكلٍ رئيسيٍ على شهاداتٍ لريفياتٍ من بلدة سلواد[٣] قضاء رام الله، وَصلن حيفا مطلع ثلاثينيات القرن الماضي، ومكثن فيها حتى الأيام الأخيرة، قبيل سقوط المدينة بيد القوات الصهيونية.

فكيف كان شكل الحياة اليومية للريفيات الفلسطينيات في حيفا؟ وهل كان لوجودهنَّ فيها أثرٌ في تحسين واقعهنَّ الاجتماعي والتعليمي؟ وما مدى مساهماتهنَّ في تطور المدينة؟ وما طبيعة نشاطاتهنَّ الاقتصادية؟ وما هو دورهنَّ في الحركة الوطنية الفلسطينية؟ وهل كان للقوى والأحزاب والجمعيات العربية دورٌ في استقطابهنَّ أو العمل على تسهيل انصهارهنَّ في المجتمع الحيفاوي؟

١ تعتبر دراسة محمود يزبك حول الهجرة العربية إلى حيفا من أوائل الدراسات العربية التي وثَّقت عملية التحول التي شهدتها حيفا إبان الانتداب البريطاني. أمَّا بخصوص دور الريفيين الفلسطينيين في تطور حيفا فيكاد يكون الدكتور جوني منصور الوحيد الذي خصص مقالاتٍ عن الفلاحين في حيفا ودورهم في تطور المدينة قبل عام ١٩٤٨ .

٢ من الأمثلة الصارخة على الدراسات التي تناولت جانباً من حياة الريفيين في حيفا بالأسلوب الوارد أعلاهكتاب: صيقلي، مي إبراهيم. حيفا العربية ١٩١٨ - ١٩٣٩ التطور الاجتماعي والاقتصادي. بيروت. مؤسسة الدراسات الفلسطينية. ١٩٩٧.

٣ تقع بلدة سلواد إلى الشمال الشرقي من رام الله وتبعد عنها ١٣كم. وهي إلى الغرب من تل العاصور.ترتفع حوالي ٩٠٠ متر عن سطح البحر. وهي ملاصقة لقرى المزرعة الشرقية وببرود ودير جرير وعين يبرود. وينحدر سكانها من قبيلة بني مرة التي نزحت من شرق الأردن. وفيها ثلاثة عائلات كبيرة هي: حامد وحماد وعياد. وفيها بلدية منذ العام ١٩١٤م. واشتهرت بزراعة التين والعنب والزيتون. بلغ عدد سكانها عام ١٩٣١م حوالي ١٦٣٥ نسمة (إحصاء بريطاني). في حين بلغ عدد سكانها عام ١٩٩٦ حوالي ٦٠٠٠ نسمة (إحصاء فلسطيني). ويوجد فيها ٣ مدارس للإناث. ومدرستان للذكور. وعدد من المؤسسات الأهلية.

* مدرّس وباحث مقيم في رام الله.

صعود حيفا كمدينة رئيسة في فلسطين

يعود تطور مدينة حيفا واكتسابها للمكانة الرفيعة إبان الانتداب كواحدة من كبرى المدن الفلسطينية، واجتذابها لآلاف المهاجرين من الفلسطينيين وغيرهم، إلى جملة من التغيُّرات مرت بها منذ أواخر العهد العثماني.فقد هدم ظاهر العمر حيفا العتيقة، ونقل سكانها الذين لا يتجاوزون ٢٥٠ نسمة إلى موقعها الحالي، وبدأت المدينة بعدها بالتوسع انطلاقاً من جانبي واديي النسناس والصليب.[٤]وكان افتتاح فرع سكة حديد الحجاز نقطة التحول الأولى التي شهدتها المدينة في بداية القرن الماضي.حيث ارتبطت منذ ١٩٠٥م بخط سكة حديد ممتد بين دمشق والمدينة المنورة.وصار ميناؤها محطة لاستقبال آلاف الحجاج المسلمين، ومركزاً مهماً لعمليات الاستيراد والتصدير، كما افتتح فيها عدد من المصانع ابتداءً من العام ١٩٠٧م، الأمر الذي جعلها مركز جذب لآلاف المهاجرين من الفلسطينيين والعرب.[٥]لقد تضاعفت مكانة المدينة إبان الانتداب البريطاني، خصوصاً بعد أن أصبحت قاعدةً عسكريةً بريطانيةً مهمةً، ومركزاً للخطوط الجوية ضمن خط يربط بين بريطانيا والهند، ومركزاً إدارياً رئيساً يحوي المكاتب الحكومية المهمة، مثل مقر حاكم لواء الشمال والعديد من المحاكم كمحكمة الصلح المركزية.[٦]وشهدت حيفا انتعاشاً في حركة التصنيع، فظهرت العديد من المصانع العربية، مثل مصانع التبغ والكرتون والورق والكيماويات والمواد الغذائية والإسمنت والمعادن، وانتشرت المطاحن ومعامل التغليف ومعامل تقطير المشروبات الكحولية، وقد زاد من حيوية حيفا وجاذبيتها افتتاح شركات نفط عالمية، كشيل وفاكيوم أويل، معامل لتكرير البترول.أمَّا تدشين الميناء عام ١٩٣٣م، فقد ساهم بشكلٍ كبيرٍ في تأكيد صدارة حيفا ومركزيتها بين المدن الفلسطينية.[٧]

واكب جملة التطورات السابقة انتعاش قطاع العقارات، وظهرت أحياء سكنية جديدة، واهتمت بلدية حيفا بتحسين بالبنية التحتية، والمرافق العامة داخل المدينة، وانتشرت المؤسسات التعليمية والخدماتية والدينية والإدارية والاقتصادية، وازدحمت المدينة بمقرات الأحزاب والجمعيات والنوادي، وحسب جوني منصور فإنَّ حيفا إبان الانتداب قد حوت ما يزيد عن ٢٤ مدرسة، و٧٧ جمعية ونادياً، و١٤ مطبعة، و٣٤ صحيفة ونشرة ومجلة اثنتين منها بالإنجليزية، و٦ مساجد، و٢٠ كنيسة ودير.[٨]

لقد أدى التطور الكبير الذي ذكر أعلاه إلى جعل حيفا مركز استقطاب كبير لآلاف المهاجرين من فلسطين وخارجها.وأصبحت المدينة غنيَّةً بالتنوع الثقافي والعرقي والديني،وشهدت حراكاً سياسياً واجتماعياً وثقافياً ميَّزها عن الكثير من المدن الفلسطينية الأخرى.كما تضاعف عدد سكانها بشكل كبير، فالمدينة التي لم يتجاوز عدد سكانها عام ١٨٤٠م الألف نسمة، أصبحت تحوي في العام ١٩٢٢م قرابة ٢٤٦٣٤ نسمة، ثمَّ تضاعف عدد سكانها بشكل أكبر حتى وصل عام ١٩٣٩م إلى قرابة ١٠٥٩٠٠ نسمة.[٩]

بدايات الهجرة الريفية إلى حيفا

مرَّت الهجرة الداخلية في فلسطين في بدايات القرن الماضي بمرحلةٍ جديدةٍ، حيث أدى اشتداد حدة المعارك بين القوات العثمانية المرابطة في فلسطين والقوات البريطانية الغازية إلى هجرة الكثير من الفلسطينيين من أماكن سكناهم إلى أماكن أكثر أمناً، كما ساهم انتشار الفقر المدقع والأمراض القاتلة في الريف الفلسطيني في دفع أعدادٍ من الريفيين للهجرة من قراهم.

على سبيل المثال، توجَّه بعض الفلاحين من منطقة رام الله إلى شمال فلسطين، ووصلت مجموعة صغيرة من أهل سلواد إلى مدينة الناصرة مع نهاية الحرب العالمية الأولى، ورغمأنَّ المدينة كانت بديلاً مقنعاً لهم، فهي على حد وصف إحداهنَّ «بلاد خير، وكان فيها دار الفاهوم أغنياء والناس بتعمل معهم»[١٠]،إلاَّ أنَّ أعدادهم بقيت محدودة، واتسم وجودهم بالموسمي،[١١]وما لبثوا أن اندفعوا للبحث عن أماكن أخرى، خصوصاً بعد وقوع مرج بن عامر بأيدي الحركة الصهيونية.

بدأ أهل سلواد بالتوافد على حيفا في أواخر

٤ مي صيقلي. مصدر سابق. ص ٢٧-٢٨.

٥ يزبك. محمود. الهجرة العربية إلى حيفا. الناصرة. مكتبة القبس. ط١. ١٩٨٨. ص٢٢-٢٤.

٦ المصدر السابق. ص ٢٣.

٧ المصدر السابق. ص ٢٥.

٨ منصور. جوني. المدينة الفلسطينية في فترة الانتداب البريطاني تطورات وتحولات اجتماعية واقتصادية وثقافية حيفا نموذجاً. رام الله. الرعاة للدراسات والنشر. ٢٠٠٩.

٩ مي صيقلي. مصدر سابق. ص ٦٥.

١٠ مقابلة مع أديبة أحمد محمد قاسم الحلح.١٥/حزيران/ ٢٠٠٢م.

١١ اعتاد بعض الريفيين من سلواد على السفر إلى الناصرة أيام مواسم الحصاد وقطف الثمار. ثم العودة إلى قريتهم بعد انتهاء الموسم.

عشرينيات القرن الماضي، وكانت الهجرة بشكلها الجديد أمراً غير مألوفٍ لهم.فقد اقتصر ترك القرية قبل تلك الفترة على المنتسبين للجيش العثماني أو الملتحقين بالأزهر الشريف أو قليلين ممن فضَّلوا الهجرة إلى أمريكا الجنوبية.كان المهاجرون من قرية سلواد من الريفيين البسطاء، الذين لم يعرفوا مهنة سوى الزراعة، ولم يحصلوا على التعليم إلا في كتَّاب القرية، وممن عانوا من انتشار الأمراض التي فتكت بأبنائهم، واكتووا بحالة الفقر المدقع التي عمَّت الريف الفلسطيني قبيل احتلال فلسطين من قبل بريطانيا، وممن عاش الجوع والحرمان بعد هجرة قسريةٍ استمرت ستة أشهر إلى وادي الصرار في منطقة القدس إثر سقوط قريتهم بيد القوات البريطانية أواخر الحرب العالمية الأولى.[١٢] فكانت حيفا بالنسبة لهم فرصةً لمستقبلٍ اقتصاديٍ أفضل، ومدخلاً لمرحلةٍ جديدةٍ.

وتشير الشهادات بأنَّ بعض السلاودة ممن وصلوا الناصرة مع انتهاء الحرب العالمية الأولى، كانوا من أوائل من هاجروا إلى حيفا أواخر عشرينيات القرن الماضي، ثمَّ بدأ تدفق الذكور من أبناء القرية اليها، ولمَّا استقر بهم المقام وانتظموا في أعمالهم، تبعتهم عائلاتهم.

كان المسافر إلى حيفا يتجه إلى الشمال الغربي من القرية، حيث يقطع، مشياً على الأقدام، منحدراً وعراً يسمى العقبة، وصولاً إلى وادي عيون الحرمية،[١٣] وهناك يجلس بجانب الطريق لحين مرور باص نابلس، الذي يستقلّه إلى حيفا.

تصف إحداهن تجربتها الأولى في السفر:» كنَّا بدنا نروح على حيفا.إمي راحت عند دار إبراهيم ابو الهندي، وقتها استأجرنا حمارين، كنت أنا وإخواتي الثنتين وأخوي عبد الرحمن، إمي حملت أخوي الصغير، ورحنا على نابلس، كانت أمي تمشي.من نابلس إطلعنا في القطار لحيفا».[١٤] وتقول أخرى:»ذهبنا أول إشي مشي إلى العقبة عند عيون الحرمية، قعدنا جنب الشارع، كان معنا أواعي ولحفة، ظلينا نستنا[ننتظر]الباص، أمي وأبوي وأختي وأخوي وأنا، لما إجي الباص ركبنا ورحنا على الناصرة، وبعدها على حيفا».[١٥] وتتذكر ثالثة: «تزوجت وأنا عمري ١١ سنة، وكان عمر الحاج مفضِّي وقتها ٢٥ سنة.بعد شهر من الزواج، رحنا على حيفا، طلعنا من سلواد مشي حتى عيون الحرمية، وبعدها إلى حيفا.سكنَّا في وادي النسناس، وكان جنبنا من سلواد الحاج عمران ومحمد أبو رية وخليل أبو رية».[١٦] وتروي رابعة: «أنا من مواليد ١٩٢٣م.قال لي أبوي إنّه راح أول مرة على حيفا سنة ١٩٢٥م، وظل يمشي ٣ أيام تَوصلها.وقعد هناك ٤٠ يوم.أنا لمَّا صار عمري ٦ سنين رحت مع أهلي على حيفا، مشينا لنابلس وبعدها اطلعنا في القطار لحد حيفا، القطار كان في منطقة القشلة في نابلس...استأجر أبوي غرفة عند كنيسة البروسترند[البروتستانت] عند اشتيه وأختها عايشة الضريرة ...».[١٧]

سكن المهاجرون من الريف في أحياء شعبيةٍ، داخل غرفٍ إسمنتية متواضعة بعضها مسقوف بالصفيح أو في أكواخ، في حين فضّل قلَّة العيش في المُغر المنتشرة في تلال حيفا.[١٨] كان التنقل من بيتٍ إلى آخر ومن حي إلى آخر سمة لازمة للريفيين حتى رحيلهم عن حيفا ً عام ١٩٤٨م.وقد خضعت أماكن السكن لاعتبارات كثيرة مثل طبيعة العمل ومكانه، وحالة المستأجر الاقتصادية، وخلفية أهل الحي.وحسب الشهادات، فقد تركَّز سَكَنُ أهل سلواد في أحياء، مثل: واديَي الصليب والنسناس، حي الحليصة، وجبل الشويكة، وجبل الأسود، وحارات الكنائس والجرينة وساحة الحناطير، وغالباً ما كان الأقارب من العائلة الواحدة يحرصون على السكن في نفس الحي.تستذكر بعض النسوة الشوارع التي سكنَّ فيها؛ فسكنت فاطمة عبد الفتاح في شارع المخلص، قرب دكان أنيس اللمام، وغير بعيد عن سينما آرمون، وسكنت فاطمة أحمد عياد عند درج درويش وقرب مدرسة الشيخ محمد السباعي، في حين سكنت صبحة سالم سليمان

١٢ للمزيد من المعلومات حول حالة سلواد عند احتلال القوات البريطانيةمنطقة رام الله وقراها. يراجع عمر موسى مشعل «سلواد حتى سنة ١٩٤٨». مجلة صوت سلواد. العدد ١. (نيسان ١٩٨٧). ص ١٢- ١٥.

١٣ تقع شمال غرب سلواد على طريق نابلس-رام الله. ولهذه العين صهريج أو بركة مبنية بالحجارة الكبيرة المنحوتة تتخذ الشكل المربع وكانت مياه العين تتجمع فيها بواسطة قناة قصيرة. وما زالت بعض جدران هذه البركة ماثلة إلى الآن. وجاء في كتاب «بلادنا فلسطين» عن عيون الحرامية: «هي بقعة أثرية تحتوي على قبور منقورة في الصخر وصهاريج ومجرى ماء وخزان». ويبدو أن هذه العين هي التي ذكرها مؤرخ بني أيوب» أبو شامة» بأنها عين الداوية (نسبة إلى إحدى طوائف الصليبيين) التي بات فيها صلاح الدين الأيوبي لليلة واحدة. وذكرت على أنها بين البيرة وسنجل.

١٤ مقابلة مع فاطمة أحمد عبد الجابر عياد. ٢/آب/٢٠٠٧م.

١٥ مقابلة مع فاطمة عبد الفتاح عبد الله حامد١٧/حزيران/٢٠٠٢م.

١٦ مقابلة مع فاطمة محمد عبد الغني حامد ١٨/حزيران/٢٠٠٢م.

١٧ مقابلة مع خزنة محمد أحمد٤/أيلول/٢٠٠٨م. ولدت خزنة محمد أحمد في قرية عينابوس. حيث اتجهت منها إلى حيفا أول مرة. ثم انتقلت للعيش في سلواد بعد زواجها من موسى مشعل. ومن المهم هنا أن نذكر أنها. كما روت. تزوجت في حيفا. وعقد قرانها الشيخ عز الدين القسام. وهذا مطابق لما جاء في وثيقة عقد القران الأصلية.

١٨ مقابلة مع تركية عبد الرحمن فرج. ١٢/آب/٢٠١٠.

في مدرسة البرج، وسكنت أديبة الحلح في شارع عمر بن الخطاب...إلخ.ويستذكرن أيضاً أسماء بعض ملّاك الغرف التي سكنوا فيها: كدار الزعيني، الزيات، القرطة، أبو صبري، داهش، صبحيه القزق، حنا شلح وأخوه جوزيف، أبو زيد، إلياس الأبيض، محمود بكير، نوح إبراهيم[١٩]...إلخ

ويسجِّل الكاتب الفلسطيني إحسان عباس في مذكراته بأنَّه كان يسكن وادي الصليب في بيت الشيخ أحمد السعدي، بجانب عائلة من سلواد.يقول عن تلك الفترة: «كان للشيخ أحمد السعدي بيت يملكه في حي وادي الصليب، يتألف من غرفتين...وضعه في حي شعبي يأوي اليه أكثر القرويين الذين يهاجرون إلى المدينة. والغرفتان علويتان فوق غرف أرضية يسكنها ريفيون من قرية سلواد وغيرها...».[٢٠]

الواقع الاجتماعي للريفيات الفلسطينيات في حيفا

شكَّلت حيفا في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي نموذجاً للمدنية الفلسطينية الحديثة، في وقتٍ كانت القوى الاستعمارية الناظم الأساسي لجملة التحولات التي شهدتها مدن المنطقة الكبرى، مثل: القاهرة وبيروت وغيرها.وقد أصبحت إبان الانتداب البريطاني بيئةً خصبةً للأيديولوجيات والتيارات الفكرية المختلفة، وأخذ التطور الإداري والاقتصادي فيها مداه، في وقتٍ كان الريفيون جزءاً رئيساً من الفئات الدنيا من العمال والباعة المتجولين وصغار الموظفين الذين سكنوا الأحياء الشعبية و»مدن الصفيح» التي انتشرت حول المدينة؛ أمَّا بالنسبة للحياة الاجتماعية، فتشير الشهادات إلى أنَّ موقف الريفيين قد اتسم بالرفض للكثير من قيم المدينة الاجتماعية، لكنَّ ذلك لم يمنع من وجود بعض الشواهد التي تؤكد ظهور بوادر انصهارٍ اجتماعي للريفيين في البيئة الحيفاوية الجديدة، كان من الممكن لها أن تأخذ مداً أوسع لو قُدِّر للتجربة أن تستمر أكثر.كان إقدام بعض الريفيين على الزواج من مدنيات أحد الدلالات الواضحة على هذا الانصهار، وقد تزوج بعض شباب سلواد من حيفاويات أو نصراويات، وحتى من لبنانيات، وقد لوحظ بأنَّ معظم من تجرّأ على الزواج من خارج البيئة الريفية كان منخرطاً في الحركة النقابية، مثل زهدي قاسم الحلح وأخيه طلب الحلح وجاسر عبد المجيد الدراوية...إلخ، وهذا مؤشر على مدى تأثير الحركة النقابية وأفكارها على منتسبيها من الريفيين.

إنَّ احتفاء الريفيين بعدم وجود أي نوع من الفرز الطائفي داخل المدينة، كما أشارت الشهادات، يعتبر مظهراً آخر للانصهار الاجتماعي، سواءً فيما يتعلق بالعلاقات المسيحية الإسلامية التي تميَّزت بإيجابيتها، أو على صعيد العلاقات بين السنة وبعض الوافدين من شيعة لبنان، فعندما سُئلت فاطمة نمر فاعور، وهي شيعية لبنانية، سكنت حيفا إبان الانتداب البريطاني، وتزوجت من السلوادي جاسر عبد المجيد الدراوية؛ سُئلت: هل واجه زواجها أية معارضة من قبل أهل العريس أو العروس، أجابت بأنَّ الاعتراض الوحيد صدر عن أم العريس واقتصر على كون العروس مدنية، وهي تريد فلاحة تستعين بها في الأعمال الزراعية.

أمَّا بخصوص المرأة الريفية وواقعها الاجتماعي، فتؤكد الشهادات تمسك الريفيين المقيمين في حيفا بالقيم الاجتماعية الريفية، ورفضهم القاطع التعاطي مع قيم المدينة.وبدا واضحاً، على الأقل من الشهادات، بأنَّ صور العناد الريفي في موضوع المرأة لم تكسرها المظاهر «الحداثية» التي سادت حيفا في تلك الفترة، بل على العكس، فقد أدت التحولات الاجتماعية التي شهدتها حيفا إبان الانتداب البريطاني، إلى مزيد من التصلب في موقف الريفيين من موضوع المرأة.ومن الشواهد على ما ذكر أعلاه تقلص هامش تحرك المرأة الريفية واقتصاره على علاقات القربى وأماكن العمل والمسجد، في وقتٍ كانت الريفية تجوب الحقول في قراها ليل نهار دون إي عائق؛ وحرمانها التعليم، حتى وهي تسكن في غرفة داخل مدرسة،[٢١] رغم ما تشير إليه العديد من الدراسات بأنَّ موقف الريف الفلسطيني من تعليم البنات كان ايجابياً، وبقاء عادة زواج الصغيرات عند الريفيين رغم وجودهم في حيفا...[٢٢]

ويمكن أن نضيف هنا إلى أنّ مشاركة المرأة الريفية في تحمل الأعباء الاقتصادية لم تزد جديداً على صعيد

١٩ تذكر خزنة محمد أحمد أنَّها سكنت مع عائلتها ببيت الشاعر نوح إبراهيم. ولما زارت حيفا بعد عام ١٩٦٧م، اكتشفت بأنَّ البيت قد تحول. كما قالت. إلى « بار وقهوة للمشلحين اليهود»

٢٠ عباس، إحسان . غربة الراعي، عمان، دار الشروق، ص ٦٧.

٢١ كانت الكثير من مدارس حيفا توفِّر سكناً داخلها للأذنة وعائلاتهم. وحسب الشهادات فقد رفض غالبية الريفيين من أهل سلواد الالتحاق بمدارس المدينة. وكانوا يفضلون أن يدرس أبناؤهم في مدرسة القرية التي تأسست عام ١٩٢٢م.

٢٢ تشير الشهادات بأنّ كثيرات قد تزوجن في سن مبكرة جدا تتراوح بين العاشرة والرابعة عشرة. ولم يكن لوجودهن في حيفا أيّ تأثير على هذه الظاهرة. بل على العكس فقد أكدت خزنة محمد أحمد بأنَّها لم تتمكن من عقد قرانها في قريتها لصغر سنِّها. فقرَّر أهلها عقد قرانها في حيفا.

تغيير واقعهنَّ الاجتماعي، إذ كانت امتداداً لما ألفنه من خروج إلى الحقول في الريف الفلسطيني، كما أنَّ الفكر الإسلاميّ المنبعث من بيئة المسجد التي اعتادت الريفيات الذهاب اليه[٢٣] لم يصل في ذلك الوقت لمستوىً يؤهله لقيادة معركة تحرير المرأة اجتماعياً وفكرياً، إذ كان أقرب للرؤية التقليدية منه للتجديد.أمَّا الحركة النسائية الفلسطينية فكانت تعاني هي الأخرى من اعتلال في العلاقة مع الريفيات، الأمر الذي انعكس سلباً على واقعهنَّ الاجتماعي.[٢٤]

كان مكان السكن شاهداً آخر على الضغط الاجتماعي الذي عايشته الريفيات الفلسطينيات، فضيق مكان السكن في الريف يعوَّض بسعة الحقول، أمَّا في حيفا فاعتبرت الغرف الإسمنتية الضيقة والأكواخ[٢٥] هامش التحرك الأساسي للريفيات.اتسمت الأكواخ بالضيق، وانعدام الخدمات، والاكتظاظ، وكان من الطبيعي أن تجد كوخاً من الصفيح قد ضم عائلتين أو أكثر.[٢٦]كان نوم أكثر من عائلة في غرفة واحدة أو كوخ واحد محل استنكار كثيرٍ من الفلاحين.وقد سجَّل بعضهم تذمره شعراً .فقال:[٢٧]

صاح ديج شعيب ما فيهاش عيب	يا رجال الغيب كونوا حاظرين
صاح ديج الجاج ما فيهاش علاج	يا نسوان نَمِنْ ما بدها اغناج.

ورغم أنَّ ظروف السكن في الغرف الإسمنتية أفضل من مثيلاتها في الأكواخ، إلا أنَّها كانت ضيِّقة، إذ كانت الغرفة الصغيرة مسكناً لعائلة تتكون من عدة أفراد، تستخدم للنوم وللطبخ وللأعمال المنزلية الأخرى.[٢٨]

طفولة الريفيات في حيفا

تؤكد الشهادات الواردة حول طفولة الريفيات في حيفا، ما قيل أعلاه، إذ كانت كثيرات منهنَّ يقضين معظم أوقاتهنَّ داخل مساكنهنَّ، وتعلل الريفيات ذلك بالقول بأنَّ عائلاتهنَّ فضلن إبقائهنَّ في المنازل، خوفاً عليهنَّ من البيئة الحيفاوية، فعلى سبيل المثال تقول فاطمة عبد الغني ياسين عياد: «كنت أسكن في حوش فيه من بيسان وأم الفحم واللجون، وكان أخوي وأمي يعملوا أذنة في المدرسة.لما يروحوا على شغلهن يسكروا الباب عليَّ بالمفتاح.كانوا يخافوا عليَّ ويمنعوني من مخالطة الغريبات.مرات كان يجي أخوي على الفورسة[الإستراحة] يفكدني[يتفقدني]، وبعد ما يخلصوا شغل نروح على قرايبنا.يوم الخميس كنت أروح معهم على المدرسة عشان أساعدهم في التنظيف.أنا ما كنت أطلع كثير.مرة وحدة رحت على حمام الباشا لما طلبت جارتنا الختيارة من أمي أن تأخذني معها على الحمام وأمي رضيت ورحت».[٢٩]

ومع ذلك فإنّ هامشاً من التحرك خارج غرف السكن كان موجوداً، وتحكي بعض النسوة عن قضاء طفولتهنَّ في اللعب حول الأدراج المنتشرة في أحياء المدينة، ويروين بحسرة عن أيام كان أطفال الفلسطينيين في واديي النسناس والصليِّب يمارسون بلا خوف هواية التحرش بالمارين من اليهود، وكيف كانت الفتيات يتحينَّ الفرص للخروج من أماكن سكناهنَّ أو المشاركة في شأن حيفاوي عام، مما يؤدي أحياناً إلى تعرضهنَّ للتوبيخ من أقاربهن.[٣٠]

تتذكر أديبة الحلح طفولتها في حيفا، فتقول: «أنا من من مواليد الناصرة في عام ١٩٢٧، وصلنا حيفا أول مرة لما كان عمري ٤ سنين.سكنَّا في وادي الصليب، كان الشارع حَلَلْ...كنا نلعب في الحوش وحولين البيت...ما في متنزهات نروح عليها زي اليوم».[٣١]

وتروي كيف فرحت لأنَّها انضمت لنساء حيِّها لحضور جنازة عزيز الخياط، أحد كبار مستثمري العقارات في حيفا، وتصف الجنازة بالمهيبة، وبأنَّها من أيام حيفا التاريخية، حيث اشترك فيها مشايخ المسلمين وقساوسة النصارى وطلاب المدارس والعمال...إلخ، وتقول بأنَّها شاهدت التابوت وكان مكشوفاً، ومحاطاً

٢٣ أشارت بعض الشهادات إلى أنَّ بعض النسوة، مثل عايشة حامد وخزنة محمد أحمد وغيرهنَّ اعتدنَّ الذهاب إلى مسجد الاستقلال والاستماع إلى دروس دينية من الشيخ صالح.

٢٤ للمزيد من المعلومات يراجع: جاد، إصلاح. نساء على تقاطع طرق، رام الله، مواطن المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية،٢٠٠٨، ص ٢٢-٢٦ .

٢٥ يطلق عليها الفلاحون أسماء أخرى مثل البرَّجيات أو البركسات أو التخشيبات.

٢٦ تذكر صبحة سليمان عياد بأنّهَا سكنت في كوخٍ صفيحٍ في محيط مدرسة البرج مع زوجها وأخوه وزوجته.

٢٧ نقلت صروه مصطفى عياد هذه الأبيات عن جارها إسماعيل أبو راس الذي سكن حيفا في تلك الفترة.

٢٨ مقابلة مع فاطمة عبد الغني ياسين، ٣٠/ ٨/ ٢٠١٠م.

٢٩ مقابلة مع فاطمة عبد الغني ياسين عياد، ٢٠١٠/٨/٣٠م.

٣٠ أديبة الحلح، مصدر سابق.

٣١ تشير الوثائق الرسمية التي بحوزة الحاجة أديبة إلى أنَّها من مواليد ١٩٢٤م، ولما سئلت عن هذا التضارب، أجابت بأنَّ أهلها أرادوا تزويجها فكبَّروها قليلاً.

بالورود، وكَفَّ الخياط مكشوفةً للمشيعين.[٣٢] لكنَّ لحظات انبهار الطفلة بالمشهد لم تصل إلى نهاياتها المأمولة، إذ شاهدها ابن عمتها أحمد أبو صبح، فوبَّخها، وأمرها بالعودة إلى المنزل.[٣٣]

وعن مرحلة الطفولة تستذكر خزنة محمد أحمد بعض الأحداث فتقول: « واحنا صغار بكينا [كنَّا] نظل في الدار.كانت أمي لما تروح على الشغل تسكر علي الباب... مرة قلت لأبوي يشتريلي لعبة، منسميها لعبة سوقية، اشترالي أبوي اللعبة من محل أبو معروف مش بعيد عن الحناطير.ويوم كنت واقف ألعب فيها على الشباج [الشباك] قامت وقعت مني على الشارع في مركة [مرور] بنات مدرسة المحبة، قامت وحدة أخذت اللعبة وصرت أعيط [أبكي]، ولما أجي أبوي طلبت منه يشتريلي لعبة ثانية».[٣٤]

كان الخروج لشراء حاجيات المنزل، من محل أنيس اللمام، في شارع المخلص، من لحظات اللهو المحببة لفاطمة عبد الفتاح حامد، كما كان يطرب قلبها كلما أمرها ابن عمها الانتباه لبسطة الخضرة الخاصة به لحين عودته؛ أمَّا عايشة محمد مزيد، وأديبة الحلح، وخزنة محمد أحمد، فقد أكدن أنَّهنَّ اعتدن الشراء من دكان نعيم العسل.[٣٥]وتحكي أديبة الحلح بأنَّها، في مرحلة لاحقة، اشترت من محل نعيم العسل زهورات من نوع الخشخاش لتسقيها لابنتها سهام حتى توقفها عن البكاء المتواصل، لكنَّ إحدى جارتها نصحتها أن لا تفعل ذلك لأنَّ هذا النوع من الشراب قد يؤذيها.

الفلاحات الفلسطينيات وسوق العمل

لعبت المرأة الريفية دوراً حيوياً داخل مجتمعها، فغالباً ما جمعت بين كونها ربة منزل وعاملة في الحقول، وكانت مشاركتها في تحمّل الأعباء الاقتصادية مع زوجها أمراً مألوفاً؛ فالعمل النسوي في الحقول، على سبيل المثال، كان جزءاً من المشهد اليومي للحياة الريفية.

لذا لما انتقلت الريفيات إلى حيفا انخرطن بشكلٍ سلسٍ في سوق العمل، وأصبحن عاملات في مجالات مختلفة، مثل أعمال التنظيف والغسل والطبخ في بيوت حيفا بأجر، حيث راج هذا العمل بشكل كبير خصوصاً بعد أن أصبحت المدينة مركزاً يستقطب رجال أعمال وشركات كبرى من جنسيات مختلفة.

كما عملت كثيرات في تربية المواشي والأبقار مثل نساء عائلة دار هيجر اللاتي سكنَّ مع أزواجهنَّ في مغر جبل الشويكة.وفي هذا السياق يمكن تعميم نموذج زمزم حماد كامرأة ريفية عاملة في حيفا على أعداد كبيرة من الريفيات، حيث ربّت البقر وباعت الحليب، واحتطبت وباعت ما جمعتهللأفران.تقول إحداهنَّ: « كان عند الحاجة زمزم بقر.كان التجار مخزنين بطاطا عند حمام الباشا.كنت أروح مع الحاجة زمزم نلم البطاطا الخربانة، وتطعمها لبقراتها».[٣٦] وهناك من عملن كبائعات متجولات مثل الشهيدة عزيزة محمد عمر حامد.وهنا لابد من الإشارة إلى وجود شواهد على شكل من أشكال عمالة الأطفال، إذ تذكر كثيرات أنَّهنَّ قمن بمشاركة أمَّهاتهنَّ أو قريباتهنَّ في بعض الأعمال كتنظيف المنازل، والغسيل، والبيع... إلخ ، على سبيل المثال، تؤكد تركية حامد بأنَّها كانت تعمل على الرغم من صغر سنِّها، فتقول: «وأنا صغيرة بكيت[كنت] أروح مع جِنَّت [كنِّة] الحاجة زمزم أخت نايف أغسل كلسات [جوارب]، وكانت تعطيني كل يوم ١٠ قروش...إحنا بكينا نشتغل من الستة الصبح حتى الستة المغرب...».[٣٧]

وتذكر النسوة طبيعة الأعمال التي كان يقوم بها أزواجهنَّ، إذ تتراوح بين العمل في سوق الخضار، كباعة متجولين أو في محلات تجارية، أو الإشراف على حدائق المنازل، أو العمل في الميناء كعتالة، وفي معسكرات الجيش البريطاني كسائقين وعمال صيانة، وفي الأعمال التي تحتاج لها البلدية من تنظيف وشق الطرقات وغيرها. وتروي تركية حامد، على سبيل المثال، بأنَّ زوجها

٣٢ وجدت ما يسند رواية جنازة الخياط ويده المكشوفة في أكثر من شهادة. مثل شهادة عايشة عبد الله مزيد وفاطمة نمر علي فاعور وخزنة محمد أحمد. لكن لم أعثر على ما يسندها في نصوص مكتوبة. ولعلها كانت تروى كقصة وعظية عن أحد مشاهير المجتمع الحيفاوي لأخذ العبرة وعدم الاغترار بالدنيا.

٣٣ أديبة الحلح. مصدر سابق.

٣٤ خزنة محمد أحمد. مصدر سابق.

٣٥ يقع الدكان بجانب جامع الجرينة لصاحبه نعيم العسل. وحسب كتاب ماجد خمرة. مارغاروش (ومضات من حيفا). إصدار جمعية التطوير الاجتماعي في حيفا. ٢٠٠٤. فإنَّ الدكان كان يبيع كل شيء من الملابس حتى المسامير. يراجع أيضاً: حبيبي. أميل. سداسية الأيام الستة. عمان. دار الجيل للطباعة والنشر. ص٥ .

٣٦ تركية حامد. مصدر سابق.

٣٧ المصدر سابق.

كان: « يعمل في البلدية، كان معه كثير من سلواد، بيجي أربعين واحد.كنت أحظر[أحضِّر] له الزوادة، ويطلع الصبح الساعة ستة على الشغل، يرجع الظهر يلقى الغدا جاهز، وبعدها يرجع على الشغل، حتى المغرب، بعد المغرب كان يروح مع موظفي البلدية يلموا البسطات إلي مش قانونية.والله كان شغله مليح.كانت حياتنا في حيفا أحسن من الكويت وأمريكا.كانت شهرية أبو عاطف يقسمها علينا وعلى أهله وقسم بوفره».[٣٨]

أمَّا الحاجة أديبة فتبدو أكثر إطِّلاعاً على سوق العمل وطبيعة مشاركة الريفيين فيه،فتقول عن تلك الفترة: « كان الناس بعملوا في مجالات كثيرة، ناس في البلدية وفي ناس كانوا أغنياء مثل دار بركات إلي كانوا يشتغلوا في الدجاج، ودار أبو شحادة إشتغلوا في السمك، في ناس كانوا يعملوا في البساتين.أخوي طلب كان يعمل بستَنجي في بيت أخت أللنبي على الكرمل.وقتها أخت أللنبي بنتلا[بَنَتْ له] بيت وسكنَّا فيه لمدة طويلة، بس ما رضت تعطينا إياه، خافت نتبرع فيه للثوار.[٣٩]أخوي زهدي اشتغل بستنجي في المستشفى.عيسى أبو عبد الجابر من دار عطية كان يعمل آذن مع زوجته وعبد الله أبو سارة من دار عياد عمل آذن مع زوجته في مدرسة البرج...زوجي عبد الحميد مراد كان يشتغل ميكانيكي في معسكر للجيش البريطاني اسمه بيت كليم.كان في ناس غيره بشتغلوا في المعسكرات سائقين، بذكر عبد الحميد حرب وبدر ومحمود أبو راس...في ناس غيرهم كانوا بشتغلوا في الخضرة، مثل حياة الحاج صقر درويش وموسى أبو العبدة وشريف المكحل، وفضيل وموسى أبو حرب، ورشيد مصطفى قاسم.وفي ناس اشتغلوا في العمار...والله يا ابنيه في ناس الله أعطاهم وتملكوا في حيفا مثل عبد المجيد أبو علي من دار حماد».[٤٠] ومن الشواهد الأدبية التي تصف لنا حال العمال الريفيين في تلك الفترة ما روته صروه عياد عن إسماعيل أبو راس وكان بائعاً متجولاً في أحياء حيفا فقال:[٤١]

رُحت تني أبيع بيظ — والقلب مَلان غيظ
أنده بحسٍ غليظ — إيقولوا عني سكران

الحركة الوطنية الفلسطينية في حيفا كما عاشتها الريفيات الفلسطينيات

كانت حيفا في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي مسرحاً لنشاط الحركة الوطنية، وقد ضمت العديد من قادة السياسة والفكر والأدب في فلسطين، أمثال: الشيخ عز الدين القسام،رشيد الحاج إبراهيم، عبد الرحمن الحاج، عبد الله الكرمي، نوح إبراهيم، نجيب نصار وآخرين.

شكلت ظاهرة الشيخ القسام متنفساً لكثيرٍ من الريفيين الراغبين في المشاركة في الحركة الوطنية، وكانت الحركة النقابية النشطة مركز جذبٍ آخر لبعض الريفيين من العمال، كما شارك آخرون فيً نشاطات بعض الجمعيات التي انتشرت بكثافة، فعلى سبيل المثال شارك كثير منهم بشكل ملحوظفي جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية التي تأسست عام١٩٣٣م، وهدفت إلى «التعاون على البر والتقوى وبث الأخلاق السامية وحفظ الروابط القومية والتمسك بما يملكونه من عقار وأراضٍ بسبب تدفق الهجرة اليهودية».[٤٢]

ورغم ما تشير له العديد من الكتابات والأبحاث التاريخية من مشاركة الريفيات بفاعلية في المقاومة الوطنية في تلك الفترة، خصوصاً مع الشيخ القسام الذي عُرف عنه تشجيعه إشراك النساء في العمل المقاوم، كما أظهرت كتابات الين فليشمان وفيحاء عبد الهادي، إلا أنَّ الشهادات تؤكد محدودية الجهد المقاوم المباشر للريفيات في حيفا.ويبدو أنَّ بعض صاحبات الشهادات لم يعايشن الشيخ القسام، إذ كنَّ صغيرات السن، أو أنّهنَّ مارسن فعلاً مقاوماً وفضَّلن التكتم على مشاركاتهنَّ لاعتبارات مختلفة.لكن الريفيات كنَّ شاهدات على الأحداث، ودعمن أزواجهنَّ وأقاربهنّ في بعض الفعاليات الوطنية.وقد سمح لهنَّ هامش التحرك الاجتماعي المتواضع سواء عبر الزيارات العائلية، أو أداء الشعائر التعبدية كالصلاة في المساجد وسماع الدروس الدينية، أو للعمل، بالتعرف على بعض الفعاليات الاجتماعية في إطارها المقاوم، والمشاركة ببعض المهمات الجهادية

٣٨ المصدر السابق.

٣٩ يؤكد رياض طلب حامد بأنَّ والده كان يعمل بستنجي في بستان ضخم يملكه أللنبي وزوجته. وأنَّ أللنبي قد منحه،قبل وفاته. جزءاً من بيت صغير لا تتجاوز مساحته ١٥٠ متر مكون من طابقين مقام في البستان . لكنّ زوجة أللنبي رفضت تطبيق وصية زوجها. فأقام طلب حامد دعوة في المحكمة لاسترداد البيت. ويبدو أن البيت أصبح ملكاً للبلدية التي أجّرته لآخرين من سلواد أيضاً، مثل عبد العالي صالح حماد.

٤٠ أديبة الحلح. مصدر سابق.

٤١ صروه عياد. مصدر سابق.

٤٢ جوني منصور. مصدر سابق. ص ٧٣.

ذات الصبغة القتالية التي شهدتها حيفا في تلك الفترة.

تتذكر عايشة حسن سلمان كيف أنَّ زوجها الناشط في «جماعة القسام» قد بدأ مع مجموعته، وبأمر من القسام نفسه، بفرض نوع من الرقابة الاجتماعية على نشاطات المقاهي في حيفا، فكان يقوم بمراقبة المقاهي وتطهيرها من العوالم [الرَّقَّاصات].كما أنَّه شارك بفاعلية في تطبيق بنود المقاطعة التي أعلنتها الحركة الوطنية، فكان حسب ما أشارت: «يمنع النسوان من العمل في الهادار[٤٣]...ومرَّة راقب حُرمة حورانية وهي رايحة من وادي النسناس إلى الهادار، فمنعها من الذهاب مرة أخرى»[٤٤].

وتسرد لنا الشهادة أعلاه كيف أراد الحاج داود سلمان التحايل على القانون من أجل الحصول على إجازة تمكنه من الذهاب إلى سلواد للالتحاق بالثوار إبان انتفاضة ١٩٣٦.وذلك بإرسال رسالة لزوجته تمر بمكان عمله في البلدية تدَّعي وفاة حماته.مما يضطره إلى أخذ إجازة والسفر إلى سلواد.وقد حدث المطلوب فأعطي إجازة لمدة أسبوعين.

وتشير الشهادة إلى مشاركة ريفيين من سلواد في الدفاع عن حيفا، وتتذكر أسماء بعض الشهداء الذين سقطوا في معركة الدفاع عن حيفا، مثل الشهيدين: وديع أبو فتوحة وسعد صالح، وكيف تمَّ نقل جثامين الشهداء إلى القرية، حيث قام زوجها بصحبة آخرين بنقل جثمان الشهيد وديع إلى سلواد، رغم الحالة الأمنية الخطيرة التي كانت شهدتها حيفا والمدن الفلسطينية الأخرى،[٤٥]وكما فعل الحاج شريف المكحل عندما وجد جثمان الشهيد سعد صالح وقام بنقله ليلاً إلى سلواد.[٤٦]

أمَّا أديبة الحلح، فتبدو أكثر إطلاعاً على مراحل العمل الوطني والتطورات التي شهدتها حيفا في سنوات الثلاثينيات والأربعينيات، ولعلَّ نشاطات أخوها زهدي[٤٧] في جمعية العمال العرب في حيفا، وشخصيتها القوية، لعبا دوراً في تعرفها على الحركة الوطنية وآليات عملها.

تعلِّق أديبة الحلح بحسرة على اتساع ظاهرة بيع الأراضي لليهود، وتتأسف على سبيل المثال على بيع عمارة الهاني المطلة على وادي الصليب لليهود، وكذلك بيع عقارات في حارة دار داهش تملكها عائلة الحواري، وتسجِّل في شهادتها محاولات المقاومة الفلسطينية القضاء على هذه الظاهرة، فتسرد قصصاً عن تعقب المقاومين للسماسرة، وتروي أنَّه تم تنفيذ أحكام بالإعدام على بعضهم، مثلما حدث لرجلين من حارتها قتلتهما المقاومة بتهمة بيع عقارات لليهود، وقد قيل في ذلك بيت من الشعر:

إنهار الحد حدَّ الله عليهم شباب إثنين يا ويلي عليهم[٤٨]

أمَّا عن العمليات الفدائية التي نفذها الثوار، فتذكر أنَّها عايشت بعض مشاهدها: «مرة كنت مع أمي والحاجة شريفة أم أبو نزار، ماشين في الطريق، قام واحد من الثوار دس مسدس بين روس الحاجة وأمي وأطلق النار على يهوديين وقتلهما...ومرة كانت أمي خابزة وعلى راسها العجين بدها تودي على الفرن.كنت أمشي معها، إجي واحد من الثوار أعطى أمي مسدس خبته بعبَّها، وهو أخذ العجين معاه.الإنجليز لحقوا الشاب وفاتوا على الفرن وفتشوه.وبعدين إجي الشاب وأعطى أمي العجين وأخذ المسدس...ومرة ثانية إجي محمد الزير عنا، كان مع الثوار، أمي خالته.إجي الإنجليز وفتشوا الدار وقتها كنا ساكنين عند دار داهش.صاحب الدار شاف الزير بس ما بلَّغ عنه.قبل ما يدخل الإنجليز علينا، نيمنا محمد الزير على الأرض وغطيناه باللحفة وقعدنا على فوقه.الإنجليز فاتوا وطلعوا وما شافوا إشي.ومحمد روَّح ثاني يوم».[٤٩]

استشهاد عزيزة محمد عمر الطاعوج حامد

تمثل حادثة استشهاد عزيزة محمد حامد في حسبة الجرينة قرب جامع الجرينة الذي يعرف أيضاً بجامع النصر وسط حيفا، نموذجاً لتضحية الريفيات الفلسطينيات، فهذه المرأة التي لا نعرف الكثير عن حادثة استشهادها، قد تحملت الكثير، وكافحت في سبيل توفير لقمة عيش كريمة لعائلتها، عملت عزيزة في مختلف الأعمال المتوفرة لريفية مثلها، قدمت إلى حيفا مع أولادها في وقتٍ مبكرٍ من ثلاثينيات القرن الماضي، لا ندري كم مرة صعدت عزيزة الجبال المحيطة بحيفا لتحتطب وتبيع ما تجمعه إلى الأفران، ولم يَعدّ أحد المرات التي خرجت فيها إلى السوق لبيع ما لديها من خضار، ولم ينتبه أحد إلى عدد الدور التي خدمت فيها...

تقول ابنتها التي رافقتها في حيفا: «أمي كانت بدها

٤٣ حي سكني يهودي على تلال الكرمل أنشئ عام ١٨٨١م على يد مهاجرين يهود قدموا من شمال إفريقيا. وقد عرف عامة بين العرب باسم أرض اليهود. أعيد افتتاحه عام ١٩٢٠م. وأطلق عليه اسم هدار هكرمل.

٤٤ مقابلة مع عايشة حسين الحاج سلمان حامد. ١٥/ حزيران/ ٢٠٠٢م.

٤٥ المصدر السابق.

٤٦ مقابلة مع عزيزة محمود المكحل. ٢٢/آب/ ٢٠١٠م.

٤٧ اطلعت على وثائق بحوزة رياض طلب حامد تؤكدنشاطات عمه زهدي في جمعية العمال في حيفا.

٤٨ أديبة الحلح. مصدر سابق.

٤٩ أديبة الحلح. مصدر سابق.

تساعد أبوي.صارت تحطِّب وتبيع للأفران.كان حولينا جبال الكرمل[منطقة الحليصة على تلال الكرمل] والحلقة.اشتغلت في الغسيل.وبعدها صارت تشتري خضرة من الحسبة وتبيع للبيوت.كان معها نسوان كثير، مثل زينب أبو راس وتمام المكحل».[٥٠]

اعتادت عزيزة، بنت الخمسة والثلاثين عاماً، الذهاب يوميّاً إلى الحسبة في سوق الجرينة وشراء بعض الخضار، ثم بيع ما لديها لبيوت المدينة.كانت بائعة خضار ماهرة، كما تذكرجارتها في حيفا فاطمة محمد عبد الغني.

وفي أحدى أيام شهر تموز من العام ١٩٣٨، وبينما هي عائدة مع صاحباتها من السوق، تذكرت بأنَّها نسيت أن تشتري البقدونس.استأذنت من الحاجة تمام وزينب وعايشة عواد، وقفلت راجعة، وما أن وصلت إلى السوق حتى حدث الانفجار الذي أودى بحياتها والعديد من العرب.[٥١]

الرحيل عن حيفا

(يا ولدان على حيفا وإلي جَرالها ...راحت حيفا ورحِن أيامها)[٥٢]

أدى تصاعد المواجهات بين العرب واليهود بعد صدور قرار التقسيم الذي يحمل رقم ١٨١ بتاريخ ٢٩ تشرين الثانينوفمبر ١٩٤٧ م إلى شروع السكان العرب بالرحيل عن المدينة ، كانت الريفيات الفلسطينيات من المجموعات التي رحلت قبل سقوط المدينة، وتؤكد الروايات التي بين أيدينا إلى أنَّ الفلاحين الفلسطينيين من خارج حيفا أرسلوا نساءهم في البداية إلى قراهم، فجمع السلاودة على سبيل المثال زوجاتهم وأبناءهم وحمَّلوهم بسيارات شحن كبيرة قادها أحمد كعدانة[٥٣] وعبد الحميد عبد الجليل العَسَلَة[٥٤]، البعض تمكن من أخذ أغراضه كما أشارت أديبة الحلح التي لم تترك في غرفتها إلا زير الماء، في حين ترك آخرون كل شي وراءهم كما حدث مع مبروكة موسى عابد.كان الأمل بالعودة يراود الغالبية العظمى من الريفيات، لكنَّها كانت مرهونة بتطور الأحداث، والذي حدث بالضبط هو أنَّ الرياح جرت بما لا تشتهي السفن، فذهبت حيفا، ولم تعد الريفيات.

خاتمة

بدأ تدفق الريفيين الفلسطينيين على حيفا في وقتٍ مبكرٍ من القرن الماضي، وقد تضاعف عددهم في ثلاثينيات القرن الماضي، خصوصاً بعد التطور السريع الذي شهدته حيفا من النواحي الإدارية والاقتصادية.

سكن الريفيون الأحياء الشعبية، ولأنّ غالبيتهم من غير المهنيين، فقد عملوا في القطاعات البسيطة كعمال في البلدية، وباعة متجولين، وعتالة، وعمال في الميناء، أو في معسكرات الجيش البريطاني...إلخ؛ أمَّا الريفيات الفلسطينيات، فقد شاركن أزواجهنَّ تحمل أعباء الحياة، فبالإضافة إلى كونهنَّ ربات بيوت نشيطات، فإنَّهنَّ خرجن إلى سوق العمل، وعملن في تنظيف البيوت، وبيع الخضار، وتربية المواشي...إلخ، لكنَّ كفاحهنَّ لم يترجم إلى انجازاتٍ على الصعيدين الاجتماعي والثقافي، فظلَّت حركتهنَّ داخل المجتمع محدودةً في أطرٍ ضيِّقة، ولم تتح لهنَّ فرصةً للتعليم، وخضعن لبعض الظواهر السلبية، كالزواج المبكر وغيره.

ولعلَّ من أهم الأسباب وراء محدودية تأثير بيئة المدينة «الحداثية» على واقع الريفيات الفلسطينيات ما كانت تمر به فلسطين من أحداث.فقد نظر الريفيون، كما الكثير من الفلسطينيين، إلى جملة التغيرات الاجتماعية والثقافية التي اجتاحت بيئات المدن الفلسطينية كجزءٍ من مخطط استعماري يهدف إلى سلب الفلسطينيين وطنهم.فكان التصلب في موضوع المرأة جزءاً من موقفٍ وطني في مواجهة الاحتلال البريطاني والحركة الصهيونية.وقد عزز هذا الشعور تلكؤ قادة التغيير ودعاة «الحداثة»، وعلى رأسهم الأحزاب السياسية الفلسطينية في التصدي بحزم للمخططات البريطانية ولنشاطات الحركة الصهيونية، والتي استهدفت أغلى ما يملك الريفيون، وهو الأرض.

لقد كان لقِصَر المدة الزمنية التي قضاها الريفيون في حيفا والتي لا تتجاوز عدة سنوات، تأثيراً سلبياً على إمكانيات تأثرهم الإيجابي بالبيئة الحيفاوية، فلا ندري ما هو شكل التغييرات على واقع الريفيين بشكل عام

٥٠ فاطمة عياد. مصدر سابق.

٥١ فاطمة عياد. مصدر سابق. يشير يعقوب الياب في كتابه جرائم الأرغون وليحي ١٩٣٧- ١٩٣٨ ترجمة غازي السعدي. دار الجليل للنشر. عمّان. ١٩٨٥. ص ٢٣٩. إلى عمليتي تفجير في سوق(حسبة) حيفا الأولى في ١٩٣٨/٧/٦. وذهب ضحيتها ٢٣ عربياً. والثانية في ١٩٣٨/٧/٢٦ ذهب ضحيتها أكثر من ٦٠و٥٠ جريحاً عربياً.

٥٢ تعقيب عايشة محمد مزيد على سقوط حيفا.

٥٣ تركية حامد. مصدر سابق.

٥٤ أديبة الحلح. مصدر سابق.

والريفيات بشكل خاص لو قدِّر لهذه التجربة أن تستمر لما بعد عام ١٩٤٨م!، كما أنَّ غياب جسم ممثل لهم جعل عراكهم مع الحياة فردياً رغم تشابه قصصهم ومعاناتهم وأحلامهم، فحرموا من الاستفادة مما قد توفره بيئة حيفا في المجالين الاجتماعي والتعليمي.

وهناك سببٌ آخر يتعلق بهدف الريفيين من القدوم إلى حيفا، إذ كان الهم الاقتصادي هو من دفعهم إلى الهجرة إليها، ورغم مشاركتهم الفاعلة في النشاطات الوطنية التي شهدتها حيفا، فقد كان الهاجس الأكبر لديهم الحصول على المال الكافي لتأمين حياة كريمة في قراهم، ولم يكن في حسبانهم ما تمنحه حيفا من قيم اجتماعية وفضاءٍ ثقافي متميز، فاليوم وبعد مرور عشرات السنوات على تلك التجربة فإنَّ غالبية الريفيين في سلواد ينظرون إلى بيوت حي رأس علي في الجزء الشمالي الغربي من القرية، التي بنيت بالمال الذي كسبوه من أعمالهم في حيفا، على أنَّه من أهم ما ورثوه من تلك الحقبة.

لقد بقي الريف بقيمه، وهمومه اليومية حاضراً في أذهان الريفيين في حيفا، خصوصاً مع تطور المواصلات، التي سهلت التواصل بينهم وبين قراهم.وما أن يطأ المهاجر أرض قريته حتى تصبح حيفا مجرد ذكرياتٍ جميلة.